إخوان بالعلانية...أعداء بالسر!!

الشيخ علي بن حسن الحلبي

إِنَّ الحَمْـدَ للهِ، نَحْمَـدُهُ، وَنَسْـتَعِينُهُ، وَنَسْـتَغْفِرُهُ، وَنَعُـوذُ بِـاللهِ مِـن شُرُورِ أَنْفُسِـنَا، وَسَـيِّئَاتِ أَعْمَالِنَـا، مَـنْ يَهْـدِهِ اللهُ؛ فَـلا مُضِـلَّ لَـه، وَمَنْ يُضْلِلْ؛ فَلاَ هَادِيَ لَه.

وَأَشْـهَدُ أَنْ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ -وَحْـدَهُ لا شَرِيـكَ لَـه- ، وَأَشْـهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْد: فَإِنَّ مِـنْ طَبَـائِعِ بَنِـي الإِنْسَـانِ: الخَطَـأَ وَالزَّلَـلَ ؛ كَـمَا قَـالَ نَبِيُّنَـا -صـلى الله عليـه وسـلم- :« كُـلُّ بَنِـي آدَمَ خَطَّـاءٌ ، وَخَـيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » ...

وَلَـئِنْ كَـانَ هَـذَا الحَـدِيثُ مَقـولاً فِـيمَنْ يُنْتَقَـدُ مِـنَ النَّـاسِ ، أَوْ يُوَجَّـهُ لَـهُ سَـهْمُ التَّخْطِئَـةِ -مِـنْهُم- ؛ فَإِنَّـهُ مَقُـولٌ -أَيْضًـا- فِي الْمُنْتَقِـدِ -نَفْسِـهِ-، وَالْمُخَطِّـئِ -ذَاتِـهِ-سَـواءً بِسَـواء- ؛ كَـمَا قَـالَ الإِمَـامُ ابْـنُ القَـيِّمِ : « وَالإِنْصَـافُ أَنْ تَكْتَـالَ لِمُنَازِعِـكَ بِالصَّـاعِ الَّذِي تَكْتَـالُ بِـهِ لِنَفْسِـكَ؛ فَـإِنَّ فِي كُـلِّ شَيءٍ وَفَـاءً وَتَطْفِيفًـا» -كَـمَا فِي «تَهْذِيب السُّنَن» (١ / ١٢٢)- .

وَمِصْدَاقُ هَذَا : قَوْلُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- :
« لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

أَقُولُ هَذَا فِي أَوَانٍ خَاضَ فِيهِ بِالخَرْصِ الكَثِيرُونَ -لِفِتْنَةٍ وَقَعَتْ!-، وَتَلَبَّسَ فِيهِ بِالظَّنِّ الأَكْثَرُونَ -لِمِحْنَةٍ نَجَمَت!-، وَمَا سَأَلْتُ -أَو سَاءَلْتُ- أَحَدًا مِنْ هَؤُلاَءِ أَوْ أُولَئِكَ -بِمَا خَاضَ وَوَلَج - إِلاَّ قَالَ -بِلاَ حَرَج!- :

سَمِعْتُ .. قِيلَ .. بَلَغَنِي .. قَالُوا ...!!! وَالمُصِيبَةُ تَعْظُمُ وَتَزْدَادُ لَمَّا يَجْعَلُ وَاحِدُهُم نَفْسَهُ -بِهَوَاه- خَصْماً وَحَكَماً -فِي آن-!!!

أَلَمْ يَعْلَمْ هَذَا وَذَاكَ وَذَيَّاكَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- :« كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

وَفِي رِوَايَةٍ :« كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا...»، وَقَوْلِهِ -صلى الله عليه وسلم- : « لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُم لادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ قَومٍ وَأَمْوَالَهُم »؟!

أَلَيْسَ فِي شَرْعِنَا الحَكِيمِ قَوَاعِدُ عِلْمِيَّةٌ مُنْضَبِطَةٌ؛ تُغْنِينَا عَنْ كَثِيرٍ مِن هَذَا الخَوْضِ ، وَتَنْأَى بِنَا عَنْ جُلِّ هَذَا التَّخَبُّطِ؟!

أَلَيْسَ فِيهَا -مَثَلاً- قَوْلُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- :

« البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي ، وَاليَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ » ؟!

وَهَذَا -وَحْدَهُ- كَافٍ لِكُلِّ مَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ... بدَلاً مِنَ ذَاكَ التَّقَوُّلِ وَالتَّقْوِيل.. وَالقَالِ وَالقِيل !!!

وَلَئِنْ كَانَ فِي (شَيءٍ) مِمَّا يَقُولُهُ الخَائِضُونَ - أَوْ يَخُوضُهُ القَائِلُونَ!- بَعْضُ حَقٍّ ؛ فَلِمَاذَا هُمْ يُضَخِّمُونَهُ فِي نَفْسِهِ -مِنْ جِهَةٍ- زِيَادَةَ بَلاَءٍ؟! وَيُوَسِّعُونَ دَائِرَتَهُ إِلَى غَيْرِهِ -مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى-تُهْمَةَ أَبْرِيَاء؟! كُلُّ ذَلِكَ بِالظُّنُونِ الحَمْقَاء! وَالشَّمَاتَةِ الخَرْقَاء! مَعَ عَجْزٍ وَتَعاجُزٍ عَنْ أَيِّ مُجَابَهَةٍ أَوْ لِقَاء!!!

فَهَلْ هَذَا هُوَ الحَقُّ ؟! بَلْ... هَلْ هَذَا مِنَ الحَقِّ ؟! بَلْ قَدْ طُلِبَ مِنْ بَعْضِ أُولَئِكَ المُفْتَرِينَ (المُبَاهَلَةُ) -جَزَاءَ كَذِبِهِم!- فَحَارُوا... وَمَارُوا!!

وَالوَاقِعُ المُعَاشُ يُؤَكِّدُ -بِلاَ أَدْنَى رَيْبٍ - أَنَّ الفِتَنَ عِنْدَمَا تَقَعُ تَكْشِفُ مِنَ النَّاسِ أَصْنافاً :

١ - ذُو النَّفْسِ المَرِيضَةِ مِنَ (القَرِيبِينَ) ؛ الَّذِينَ (تُسَيَّرُ) حِسَابَاتُهُم عَلَى غَيْرِ الشَّرْعِ ، وَتَمْشي المُطَيْطَاءَ (!) مُخَالِفَةً

للهُــدَى ؛ تَنْظُــرُ المَصَــالِحَ الضَّــيِّقَةَ، وَتَتَغَــاضَى عَــنْ المَصْــلَحَةِ الكُبْرَى ؛ مُنْتَظِرَةً الهَفْوَةَ وَالزَّلَّة –مِنَ الهَوَاء–وَبِالأَهْوَاء–!!

٢ – الخَصْــمُ المُــتَرَبِّصُ (مِــنَ البَعِيــدِينَ)؛ الَّــذِي يَرْفُضُــكَ ابْتِــدَاءً ، وَلاَ يَقْبَلُــكَ أَصْــلاً ، فَهُــوَ يَــزْدَادُ سُــوءًا بِمُجَــرَّدِ بُعْــدِهِ؛ فَكَيْــفَ الحَــالُ مَعَــهُ –إِذَنْ– بِــأَيِّ خَــبَرٍ يَصِــلُ إِلَيْــهِ عَنْــكَ؛ غَاضًّــا طَرْفَــهُ وَعَقْلَهُ وَقَلْبَهُ عَنْ طَلَبِ البَيِّنَةِ ، أَوْ تَطَلُّبِ الدَّلِيلِ !؟!

٣ – ضَــعِيفُ الشَّخْصِــيَّةِ (المُتَذَبْــذِبُ) ؛ الَّــذِي تَغُــرُّهُ شَــائِبَةُ رِيبَــة ، وَتُفْسِدُ قَلْبَهُ أَقَلُّ كَلِمَة ، وَتُحِيطُ بِهِ –لِتَرْمِيَهُ!– أَدْنَى شُبْهَة!!

٤ – القَــوِيُّ الصَّــادِقُ (الثَّابِــتُ) ؛ الَّــذِي يَطْلُــبُ الصَّــوَابَ ، وَيَتَطَلَّــبُ البَيِّنَــةَ ، وَيُقِيــلُ العَثْــرَةَ ، وَيُقَــدِّمُ النُّصْــحَ ، وَيُبَــاشِرُ التَّــوَاصِيَ بِــالحَقِّ وَالصَّــبْرِ وَالمَرْحَمَــةِ ؛ مُرَجِّحــاً المَصْــلَحَةَ الشَّرْــعِيَّةَ الكُبْرَى عَلَى المَصَالِحِ الذَّاتِيَّةِ الصَّغِيرَة!!

... وَهَذِهِ القِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّــةُ –وَمَــا قَــدْ يَتَفَــرَّعُ عَنْهَــا– لاَ تَخْــرُجُ عَــمَّا قَالَهُ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ فِي «إِعْلاَمِ المُوَقِّعِين» (٤/ ٢٠٠٠) :

«وَقَــالَ بَعْــضُ السَّــلَفِ : مَــا قُــرِنَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ أَحْسَــنَ مِــنْ عِلْــمٍ إِلَى حِلْمٍ .

وَالنَّاسُ هَهُنَا أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ :

فَخِيَارُهُمْ : مَنْ أُوتِيَ الْحِلْمَ وَالْعِلْمَ ،

وَشِرَارُهُمْ : مَنْ عَدِمَهُمَا ،

الثَّالِثُ : مِنْ أُوتِيَ عِلْمًا بِلَا حِلْمٍ.

الرَّابِعُ : عَكْسُهُ .

فَالْحِلْمُ زِينَةُ الْعِلْمِ وَبَهَاؤُهُ وَجَمَالُهُ ، وَضِدُّهُ الطَّيْشُ وَالْعَجَلَةُ، وَالتَّسَرُّعُ وَعَدَمُ الثَّبَاتِ .

فَالْحَلِيمُ لَا تَسْتَفِزُّهُ الْبَدَوَاتُ ، وَلَا يَسْتَخِفُّهُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، وَلَا يُقْلِقُهُ أَهْلُ الطَّيْشِ وَالْخِفَّةِ وَالْجَهْلِ .

بَلْ هُوَ وَقُورٌ ثَابِتٌ ذُو أَنَاةٍ ، يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ وُرُودِ أَوَائِلِ الْأُمُورِ عَلَيْهِ ، وَلَا تَمْلِكُهُ أَوَائِلُهَا ، وَمُلَاحَظَتُهُ لِلْعَوَاقِبِ تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ تَسْتَخِفَّهُ دَوَاعِي الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ .

فَبِالْعِلْمِ تَنْكَشِفُ لَهُ مَوَاقِعُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ ، وَبِالْحِلْمِ يَتَمَكَّنُ مِنْ تَثْبِيتِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْخَيْرِ ، فَيُؤْثِرُهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهِ ، وَعِنْدَ الشَّرِّ: فَيَصْبِرُ عَنْهُ ؛ فَالْعِلْمُ يُعَرِّفُهُ رُشْدَهُ ، وَالْحِلْمُ يُثَبِّتُهُ عَلَيْهِ » .

فَأَيْنَ أَنْتَ –يَا عَبْدَ الله– مِنْ هَذِهِ –أَوْ بَعْضِهَا– ؟!

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾...

وَهَذَا كُلُّهُ –كَيْفَمَا كَانَ!– لاَ يَمْنَعُ –البَتَّةَ– أَنْ يُقَالَ للمُخْطِئِ: أَنْتَ مُخْطِئٌ ...

وَأَنْ يُشْكَرَ النَّاصِحُ عَلَى نُصْحِهِ ... وَأَنْ يُدْعَى للمُشْفِقِ عَلَى سَلامَةِ صَدْرِهِ ...

وَأَنْ يُصْبَرَ عَلَى المُتَرَدِّدِ؛ لَعَلَّهُ يَنْصَلِحُ ... وَأَنْ يُزْجَرَ الظَّالِمُ؛ لَعَلَّهُ يَكُفُّ وَيَنْكَفُّ ...

وَخِتَامًا:

انْظُرْ لِنَفْسِكَ –يَا أَخِي– مَوَاقِعَ أَقْدَامِهَا، وَاحْذَرْ –حَذَرَ الخَائِفِ المُتَرَقِّبِ اليَقِظِ– مِمَّنْ وَصَفَهُمُ العُلَمَاءُ النَّاصِحُونَ بـ (إِخْوَانِ العَلاَنِيَةِ، أَعْدَاءِ السِّرّ!!)؛ فَهُمْ –كَمَا قَالَ الإِمَامُ الخَطَّابِي فِي كِتَابِهِ «العُزْلَة» (ص١١١)–:

« إذَا لَقَـوْك تَمَلَّقُـوا لـك ، وَإِذَا غِبْـتَ عَـنْهُمْ سَـلَقُوك ، وَمَـنْ أَتَـاك مِنْهُمْ: كَانَ عَلَيْـك رَقِيبًـا ، وَإِذَا خَـرَجَ: كَـانَ عَلَيْـك خَطِيبًـا ، أَهْـلُ نِفَاقٍ، وَنَمِيمَةٍ ، وَغِلٍّ ، وَحِقْدٍ ، وَخَدِيعَةٍ ...»!!

وَإِنَّ هَـذَا الصِّـنْفَ (!) لَيَكْثُـرُ وَيَـزْدَادُ -بَـلْ يَتَكَـاثَرُ!- فِي ظِـلاَلِ عَـــصْرِ التُّكْنُولُوجيَــا -الْمُنْفَلِتَــةِ!- الَّــذِي نَعِيشُــهُ ؛ حَيْــثُ صَـفَحَاتُ الإِنْتَرْنِـت ، وَالْمُـدَوَّنَاتُ الخَاصَّـةُ، وَالمَوَاقِـعُ المَشْـبُوهَةُ ؛ إِذْ يَكْتُـبُ مَـنْ شَـاءَ مَـا شَـاءَ كَيْـفَ شَـاءَ ! بِـلاَ رَقِيـبٍ وَمِـنْ غَـيْرِ حَسِـيبٍ ؛ مُتَسَـتِّرًا -مِـنْ وَرَاءِ جُـدُرٍ!- بِأَسْـمَاءٍ كُـبْرَى كَاذِبَـة، وَمُنْدَسًّـا خَلْـفَ أَلْقَـابٍ عُظْمَـى خاوِيَـة - جَهْـلاً ، وَجُبْنًـا ، وَفَسَادًا ، وَإِفْسَادًا - !

وَمِثْـلُ ذَلِـكَ -تَمَامًـا- أَصْـحَابُ رَسَـائِلِ الهَوَاتِـفِ النَّقَّالَـةِ - المَجْهُولُــونَ الجَــاهِلُون- ؛ الَّــذِينَ يَكْتُبُــونَ مَــا يَشْــتَهُونَ ، وَيُشَوِّشُـونَ ، وَيَسُـبُّونَ ، بَـلْ يَلْعَنُـون !! لاَ جَوابـاً يَنْتَظِـرُون! وَلاَ حَقًّا يَأْمُلُون!!

يَكْتُبُ هَؤُلاَءِ وَأُولَئِـكَ -وَكَـأَنَّهُم يَحْسَـبُونَ أَنَّ رَبَّهُـم عَـنْ فَعَـائِلِهِم غَافِـلٌ!- لِيُسْـمِعُوا غَـيْرَهُم هَـذْيَهُم -فَقَـط-؛ دُونَ انْتِظَـارِ أَنْ

يَسْمَعُوا مِنْهُم مَا يَكْشِفُ -لَهُم- مَا فِيهِم مِنَ الغَلَطِ والشَّطَط؛ وَيْكَأَنَّ كَلامَ الوَاحِدِ مِنْهُمْ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ !!

نَعَمْ؛ الوَاحِدُ مِنْهُم (!) لا يَظُنُّ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ -وَلَوْ فِي أَدْنَى أَمْرِهِ!- لَكِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ !!! وَهُمْ -جَمِيعاً- عِنْدَ التَّأَمُّلِ- لا يَضُرُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُم ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ -بَيْنَ غِيبَةٍ، وَنَمِيمَةٍ، وَسُوءِ ظَنٍّ-...

وَلَوْ أَرَادُوا الحَقَّ .. لَدَخَلُوا أَبْوَابَهُ، وَعَرَفُوا أَسْبَابَهُ، وَوَاجَهُوا طُلاَّبَهُ، وَقَبِلُوا هَدْيَهُ وَصَوَابَهُ ...

فَأُولَئِكَ -بِجَهْلِهِم وَجَهَالاَتِهِم- مُخَالِفُونَ لِلنُّصُوصِ الشَّرْعِيَّة، بَل القَوَانِين الوَضْعِيَّة (!) الَّتِي تَفْسَحُ لأَيِّ مُتَّهَمٍ حَقَّ المُدافَعَةِ عَنْ نَفْسِهِ!!!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ

فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾...

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ -عِنْدَ الفِتْنَةِ أَوِ المِحْنَةِ- طَرِيقاً تَسْلُكُ بِهِ دَرْبَكَ: قَلْباً أَعْمَى لاَ يَهْتَدِي وَلاَ يُمَيِّزُ، أَمْ قَلْباً مُمْتَحَناً بِالتَّقْوَى، وَمُشْرِقاً بِالتَّسْدِيد؟!

وَعَلَيهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ القَوْلِ وَالقَوْلِ المُضَادِّ -تَبَعاً لِلقَلْبِ وَتَقَلُّبَاتِهِ!- تُفْسِدُ وَتُمْرِضُ وَتُهْلِك ، وَلاَ مَخْرَجَ مِنْهَا إِلاَّ بِتَطْبِيق هَدْيِ قَوْلِ الله -تَعَالَى-:

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ ...

﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ؟!))